مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 10، عدد رقم: 02، جوان 2021، صص: 07- 22

تاريخ الاستلام(2021/04/29)تاريخ القبول (2021/06/05)تاريخ النشر (2021/06/30)

أثر العامل الحجاجي في بلاغة خطاب عبد القاهر الجرجاني

The effect of the argumentatif operator in Abdelkahar Aldjordjani rhetoric discourse

جلالي علي[1]، بن يحي ناعوس[2]

[1] جامعة أحمد زبانة ـ غليزان (الجزائر)، ali.djellali@univ-relizane.dz

[2] جامعة أحمد زبانة ـ غليزان (الجزائر)، derb67@hotmail.fr

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف على أهمية العامل الحجاجي في خطاب عبد القاهر الجرجاني، ودوره في تحقيق الغاية الإقناعية، نظرا لما يحدثه من انسجام وتماسك في الخطاب، وقيادة المتلقي للاتجاه الذي يريده المُحاجج. وقد بيّنت هذه الدراسة مدى وعي الجرجاني بفعّاليّة العامل الحجاجي في تماسك الخطاب وتكامل بنيته وكشف وجهته الحجاجية، التي جعلته يسهب في التدليل عليه في بعض أبحاثه تنظيرا وتطبيقا، حتى أنّه خصّ بعض العوامل (القصر والاختصاص) في كتاب دلائل الإعجاز ببابٍ قارب الثلاثين صفحة.

كلمات مفتاحية: العامل الحجاجي؛ الخطاب؛ الوجهة الحجاجية؛ عبد القاهر الجرجاني؛ الغاية الإقناعية؛ المتلقي.

Abstract:

This study seeks to determine the importance of the argumentative operator in Abdelkahar Aldjordjani discourse, and his role in re alization of the persuasive aim , due to the harmony and the cohesion it applies to the discourse, and leading the recipient right the direction that the argumentator wants. This study already brought to light Aldjordjani range of awareness in the efficiency of the argumentative operator in the

المؤلف المرسل: جلالي علي، الإيميل: ali.djellali@univ-relizane.dz

discourse coherence and the structure completeness and revealing his argumentative destination, wich made him use it fairly in some of his research theoretically and practically he even devote a chapter with almost thirty pages for some operator (Minority and jurisdiction) in his book guides of diaphragm.
Keywords: the argumentative operator; the discourse; the argumentative destination; Abdelkahar Aldjordjani; the persuasive aim; the recipient.

1. مقدمة:

يعتبر الحجاج سمة واضحة في التفكير البلاغي لعبد القاهر الجرجاني، فقد صاحب كتاباته منذ البدايات الأولى، مستنجدا فيها بكل الآليات والأساليب الحجاجية، المنطقية والجدلية والفكرية والتداولية والخطابية، الذي سعى من ورائها بيان أفكاره، وإقناع المتلقي بها.

وبناء على هذا الطرح حاولت هذه الورقة البحثية الوقوف على أهمية العوامل الحجاجية عند الجرجاني، ودورها في توجيه خطاباته، باعتبارها من أهم الآليات الحجاجية الخطابية، إنطلاقا من الإشكالية الآتية: **ما مدى قوة العامل الحجاجي في تحقيق الغاية الإقناعية في خطاب الجرجاني؟** وفْقًا لتصور دكرو (Ducrot) وأنسكومبر (Anscombre) من خلال نظريتهما (اللّغة والحجاج)، التي ترى أنّ اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية، وظيفة حجاجية، مقتصراً على العوامل الحجاجية دون الروابط الحجاجية نظرا للتمييز الذي أعلنه ديكرو بينهما كما سيأتي.

2. بلاغة الجرجاني بين الأسس والمفاهيم:

ينطلق المفهوم البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني من منظور مذهبي قائم على عقيدة أشعرية تتعلق بطبيعة كلام الله، فالكلام عند الأشاعرة نوعان: « نفسي ولفظي، والكلام النفسي بالنسبة إلى الله هو القديم »[(1)]، فالأشاعرة يعتقدون أنّ القرآن الكريم ينقسم إلى معنى نفسي قديم، هي صفة من صفات الله الأزلية القديمة، وإلى ألفاظ مستحدثة تكون في هيئتها التركيبية تابعة لذلك المعنى النفسي القديم، وهو ما انطلق منه الجرجاني في بناء نظريته مؤكدا على أنّ «جوهر الكلام هو ذلك الكلام النفسي وأما الكلام اللفظي فهو ظل لهذا الكلام النفسي»[(2)]، وهو ردّ صريح على الذين تشبثوا باللفظ ونسبوا له المزية، مثلما زعم أبو هلال العسكري قائلا: «وليس الشأن في إيراد المعاني، لأَنَّ المعانيَ يعْرِفُها العربيُّ والعجميُّ والقرويُّ والبدوي، وإنما هو في جودةِ اللفظِ وصفائه، وحُسْنِه وبهائه، ونزاهته ونَقَائِه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السَّبْكِ والتركيب، والخلوّ من أَوَدِ النَّظمِ

والتأليف»[3]، فالعبرة والمزية في نظريته ليست للفظ، فهو يرى أنّ شرف النظم وبلاغة الكلام تُرد إلى حسن الدلالة على المعنى.

لقد كان عبد القاهر الجرجاني يسعى بعمله جاهدا إلى نقض التوجه الاعتزالي ودحض أرائه وتمكين لأفكاره، بآليات حجاجية تغذيها النزعة المذهبية وتؤطرها النظرية اللغوية، على هذا الأساس كانت نظرته لمشروعه البلاغي نظرة متباينة مع توجه اللفظيين، فالنظم أو التركيب عنده لا يخص الألفاظ إنما يخص المعاني التي في النفس، وهذا هو أصل وموضوع نظريته البلاغية، وقد عبّر على ذلك بقوله: « أنه لا يُتَصوَّر أن تَعْرِف لِلَّفْظِ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أنْ تتوخَّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخَّى الترتيب في المعاني وتُعْمِل الفكرَ هناك، فإذا تَمَّ لك ذلك أَتبعتها الألفاظ وَقَفَوْت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فِكْراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتَّبُ لك بِحُكْم أنَّها خَدَمٌ للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علمٌ بمواقع الألفاظ الدالَّة عليها في النطق »[4]، وسعى جاهدا يدافع عن أفكاره، يقدم الدليل ثم الدليل، للتمكين لها في العقول منطلقا من موقع خصومه قائلا: « ودليلٌ آخر، وهو لو كان القَصْدُ بالنظم إلى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغَرَضُ ترتيبَ المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حَذْوِها، لكان يَنْبَغي ألا يختلف حالُ اثنين في العلم بحُسْنِ النظم أو غير الحُسْنِ فيه، لأنهما يُحِسّان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يجهَلُه الآخر »[5].

وهناك من يرى بأنّ نظرية عبد القاهر تجاوزت عصره وتجانست مع النظريات اللسانية الحديثة، واتفقت معها من حيث المبدأ، قال الدكتور محمد مندور: « إنه يستند إلى نظرية في اللغة، أرى فيها ويرى معي كل من يمعن النظر أنها تماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء، ونقطة البدء تجدها في آخر « دلائل الإعجاز » حيث يقرر المؤلف ما قرره علماء اليوم من أنّ اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات» Système des rapports وعلى هذا الأساس العام بنى عبد القاهر كل تفكيره اللغوي »[6]، وهو منهج اعتمده جل الباحثين المحدثين وخاصة في البحث التداولي.

3. المنهج الحجاجي للجرجاني:

تميّز منهج عبد القاهر الجرجاني بالرد والاعتراض بالحجج والأدلة والبراهين، فقد اتّبع استراتيجية حجاجية قائمة على تشريح المسائل والتدليل عليها، متّخذا من الجهاز

الحجاجي وسيلة لمقارعة الخصوم وتفنيد أفكارهم، ودحض مزاعمهم، بأسلوب حواري حجاجي يضع من خلاله خصمه على مستوى أفقي، فكان « حينما يناقش ويفند الآراء فنراه يكثر من قوله: « إن قلتم قلنا ... » و« فإن قيل .... قيل ... » و«كيف لا يكون الأمر كذلك مع أنه كذا وكذا ..... » و« ما هو إلاّ كذا وكذا » ... ونحو هذه العبارات التي تتردد في نقاشه »(7)، ولعل كتاب **دلائل الإعجاز** خير دليل يجعل القارئ يدرك بأنّ الرجل عارف بتصاريف الكلام ووجوه الاحتجاج والجدل، فعنوانه يحمل مصطلحا حجاجيا، جمع بين الدليل والإعجاز، وقد صرح فيه بذلك قائلا: « وجملة ما أردتُ أَن أبيِّنه لك: أنه لابدَّ لكل كلامٍ تستحسنه، ولفظٍ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهةٌ معلومةٌ وعلَّةٌ معقولةٌ، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، وعلى صِحة ما ادعيناهُ من ذلك دليل »(8)، أي إقامة الدليل القاطع الذي منتهاه الدحض والإذعان، وهو كتاب في الحجاج جمع فيه الدليل ثم الدليل بهدف إقناع المتلقي.

والمتمعن في بلاغة عبد القاهر الجرجاني يدرك بأنّها لا تقف عند الجانب الجمالي الإمتاعي، وإنّما تتعداه للجانب التأثيري الحجاجي، وهو ما تجلى في الفصل الذي عقده في كتابه **أسرار البلاغة** تحت عنوان: **أمثلة في تأثير التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني**، قائلا: « واعلم أنّ مما اتفق العقلاء عليه، أن « التمثيل » إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكَسَبها مَنْقَبةً ورفع من أقدارها ... فإن كان مدحًا، كان أبْهَى وأفخم، وأنبلَ في النفوس وأعظم ... وإن كان ذمًّا، كان مسُّهُ أَوجعَ، ومِيسَمُه ألذع، ووقعُه أشدّ ... وإن كان حِجاجًا، كان بُرهانه أنور، / وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر»(9)، فالتمثيل عند عبد القاهر الجرجاني يُكسِب الخطاب قوة حجاجية بجانب الوظيفة الجمالية تجعله وسيلة أساسية من وسائل الإقناع، « ومن هنا يتبيّن أنّ معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية ولإنجاز مقاصد حجاجية ولإفادة أبعاد تداولية»(10)، وعليه فإنّ بلاغة عبد القاهر الجرجاني ما هي إلا أساليب إقناعية وظّفها في كتاباته للدفاع عن أفكاره وأرائه، جعلته يتوسل بالعديد من المصطلحات الحجاجية من قبيل: الحجة، الحجج، الاحتجاج، المحتج، الاستدلال، الاستقراء، المناظرة، الدليل، الاقتضاء، التأمل، المنازعة، الشاهد، البرهان...إلخ.

4. العامل الحجاجي:

تعتبر العوامل الحجاجية من أهم المفاهيم الرئيسيّة التي بُنيت عليها نظرية الحجاج في اللّغة، نظرا لما تحدثه من انسجام في الخطاب وقيادة المتلقي إلى الاتجاه الذي يريده المتكلم أو الكاتب، فهي تعمل على تقليص الاستلزامات الحجاجية للقول أو الجملة الواحدة داخل الخطابات، وتتمركز هذه المفاهيم أساسا في أبنية اللّغة، كما تعتبر العوامل الحجاجية، « محرّكا رئيسيا من ضمن المحرّكات التي تقوم عليها عملية التخاطب »[11]، إذ بها تتأسس العملية الحجاجية، وبها يكتسي الخطاب طابعا إقناعيا ، وهي في ذلك على أشكال مختلفة وتتعدّد وتختلف في طاقتها الحجاجية.

وقد أشار أبو بكر العزاوي في كتابه الحجاج والتلفظ **Argumentation et Enonciation** أنّ «مفهوم العامل الحجاجي أُدْرِج لأول مرة في مقال لديكرو (Ducrot) تحت عنوان ((Note sur l'argumentation et l'acte d'argumenter المنشور 1982، ثم شرحه وطوره في مقال أخر موسوم بـ ((opérateurs argumentatif et visée argumentative، المنشور في سنة 1983 »[12]، وقد ميّز ديكرو Ducrot بينه وبين الرابط الحجاجي، ووضع لكل واحد منهما مفهومه الخاص، انطلاقا من وظيفته داخل الخطاب، وهو ما جاء على لسان شكري المبخوت في كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم: «ولئن استعملنا هنا عبارة الربط الحجاجي فإنّ دكرو يميز بين نوعين من المكوّنات اللغوية التي تحقّق الوظيفة الحجاجية أمّا النوع الأول فهو ما يربط بين الأقوال من عناصر نحوية مثل أدوات الاستئناف (الواو، الفاء، لكن، إذن...) ويسميه روابط حجاجيّة وأمّا النوع الثاني فهو ما يكون داخل القول الواحد من عناصر تدخل على الإسناد مثل الحصر والنفي أو مكوّنات معجمية تحيل في الغالب إحالة غير مباشرة مثل "منذ " الظرفية و" تقريبا "و" على الأقل "... إلخ ويسميه عوامل حجاجية »[13].

لقد حظي العامل الحجاجي باهتمام كبير من طرف ديكرو Ducrot، وأنسكومبر Anscombre نظرا لوظيفته الحجاجية داخل الخطاب، فهو « صُرَيفَة (مورفيم) إذا تم إعمالها في ملفوظ معين، يؤدي ذلك إلى تحويل الطاقة الحجاجية لهذا الملفوظ »[14]، ويقوم في الوقت نفسه بتقييد وحصر التأويلات الحجاجية للأقوال بغية توجيه المتلقي وجهة حجاجية معينة، يقول أبو بكر العزاوي: «أما العوامل الحجاجية، فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية (أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموع حجج)، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات

الحجاجية التي تكون لقول ما»[15]، ومن أهم وظائف العوامل الحجاجية أنها ترسم خطة حجاجية مؤدية إلى نتيجة ما، « بل إنّه ثمّة من الباحثين على غرار "روث اموسى" من يرجع تناسق الخطاب وترابطه وتكامل بنيته إلى العوامل الحجاجية لأنّها تساعد على اكتشاف وجهته الحجاجية »[16]،

5. العامل الحجاجي عند الجرجاني:

لم يغب مفهوم العامل من كتابات عبد القاهر الجرجاني، فقد أَوْلَى له اهتماما كبيرا، حتى أنه عقد له بابا في كتاب **دلائل الإعجاز** تحت عنوان « **باب القصر والاختصاص** »[17]، خصّ فيه **إنما** بفصل موسوم بـ« **فصل في مسائل «إنما»** »[18]، وفصلا آخر تكلم فيه عن: « «**ما**» و«**إلا**» »[19]، تنظيراً وتطبيقاً.

إنّ أهمية هذه العوامل في النظم عند عبد القاهر الجرجاني جعلته يسهب الكلام للتدليل عليها حتى أنه خصّها بحوالي ثلاثين صفحة في كتابه دلائل الإعجاز من (328-358)، ردّ فيها على أبي علي الفارسي الذي ساوى بين «**إنما**» و«**ما**» و«**إلا**»[20]، قائلا: « أنه ليس كلّ كلام يصلح فيه «**ما**» و«**إلا**»، يصلح فيه «**إنما**» »[21]، ثم ذكر موضوع «**إنما**»، على أنها « تجيء لخبرٍ لا يجهلُه المخاطَب ولا يَدْفَعُ صِحَّتَه، أو لِما يُنَزَّل هذه المنزلة »[22]، ثم بيّن مراد «**إن**» و«**إلا**» والفرق بينهم وبين «**إنما**»[23]، ثم وقف على عمل «**إنما**» ووظيفتها في الخطاب قائلا: « اعلَمْ أنها تُفِيد في الكلام بعدها إيجابَ الفعل لشيء، ونَفْيَهُ عن غيره، فإذا قلتَ: «إنّما جَاءني زيدٌ»، عُقِل منه أنك أردت أن تنفي أن يكون الجائي غيره. فمعنى الكلامِ معها شبيه بالمعنى في قولك: «جاءني زيد لاعمرو»»[24]، إنّ إدخال «**إنما**» في الجملة تُكسبها قوة حجاجية تسهم في توجيه الملفوظ نحو نتيجة معينة ومحددة، وهي أن الجائي زيد لا عمرو أو خالد، لقد قامت «**إنما**» بإخراج الملفوظ «جاءني زيد» من محتواه الخبري الذي يحتمل المشاركة في المجيء إلى محتوى حجاجي يوجه هذا الملفوظ إلى نتيجة محددة ينفي من خلالها هذه الشراكة، والمفهوم الذي أراده عبد القاهر الجرجاني من خلال عمل «**إنما**» في هذا الملفوظ، هو مفهوم يتقاطع مع مفهوم التوجيه الحجاجي لدى ديكرو Ducrot في نظريته الحجاجية، وهذا التوجيه يُسند إلى « المكوّنات اللغوية المختلفة للجملة التي تحدد معناها وتضيّق أو توسّع من احتمالاتها الحجاجية وهذه المكوّنات هي التي تحدد طرق الربط بين النتيجة وحجتها »[25]، والتي يوظفها المتكلم لبلوغ نتائج معينة.

ثم وقف على حكم «ما» و«**إلاّ**»، ووظيفتها داخل البناء اللغوي للخطاب، مستشهدا في ذلك بالمثال الآتي: « اعلم أنك إذا قلت: «ما جاءني إلاّ زيد»: احتمل أمرين: **أحدهما**: أن تريد اختصاص «زيد» بالمجيء وأن تَنْفِيه عن ما عَداه، وأن يكون كلاماً تقوله، لا لِأنّ بالمخاطب حاجةً إلى أن يعلم أن «زيداً» قد جاءك، ولكن لأنّ به حاجة إلى أن يعلم أنه لم يجيء إليك غيرُه »[26]، فعمل «ما»و «**إلاّ**» في هذه الجملة يدل على تخصيص المجيء لزيد ونفيه عن غيره؛ أي تعمل على تصحيح ظن المخاطَب الذي اعتقد أنّ زيدا لم يكن وحده أثناء مجيئه، وهي النتيجة التي يسعى المتكلم إيصالها للمخاطَب، وأما الأمر **الثاني**: أنها تعمل عمل «**إنما**»، « ويكون كلاماً تقوله ليُعْلَم أن الجائي «زيد» لا غيره »[27]، وقد تمّ الكلام عنها سابقا.

وفي الأخير سنختم بالعامل الحجاجي «كاد»، التي خصّها عبد القاهر الجرجاني هي الأخرى بفصل، عرّفها من خلاله وفسّر فيه قولهم: «لم يكد يفعل»[28]، وهي تدل في اللغة على قرب وقوع الفعل، وشارف الوجود[29]، وهو معناها المشهور، وهي تعمل على توحيد المضمون النصي، وتوجيهه نفس الوجهة حجاجية ، « فالقول المشتمل على عامل حجاجي من قبيل:" تقريبا" أو "أوشك على..." أو "كاد... يسلك، من الناحية الحجاجية، سلوك القول المثبت وتكون له نفس الوجهة الحجاجية التي له:

- انتهيت ـــــــــــــــ] لن ينتظر الضيوف
- انتهيت تقريبا ـــــــــــــ] لن ينتظر الضيوف
- أوشكت على الانتهاء ـــــــ] لن ينتظر الضيوف »[30].

ويقوم العامل «كاد» وفق التحليل الحجاجي اللساني على مفهومي الاقتضاء والحجاج، فمثلا: إنّ مقتضى القول «كدت أنجح » هو أنّ النجاح لم يحصل، فقد اقتضى هذا الملفوظ ذلك، ووجود العامل «كدت» وضحه وأكده[31]، وأما عمله على المستوى الحجاجي، « فهو يتيح لنا الربط بين مقاطع النص وأجزائه، وبين الأقوال والجمل داخل المقطع الواحد »[32].

وأما ما جاء في نفي «كاد»، أي قولهم «لم يكد يفعل» فقد بيّنه الجرجاني قائلا: « إن الذي يقتضيه اللفظُ إذا قيل: «لم يكد يفعل» و«ما كاد يفعل»، أن يكون المراد أن الفعل لم يكُنْ من أصْله، ولا قاربَ أن يكون، ولا ظُنَّ أنه يكون »[33]، لقد أراد الجرجاني إزالة الشبهة التي جرت في العرف، وتصحيح الخطأ السائد في هذا القول، الذي ظُنَّ أنه « في فِعْلٍ قد

فُعِلَ، على معنى أنه لم يفعل إلاَّ بعد الجُهد، وبعد أن كان بعيداً في الظَّن أن يفعله، كقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة، 71] »[34].

وللعامل الحجاجي «كاد» أسرار كثيرة في العربية، وله استعمالات متعددة تتحدد حسب سياق النص وقصدية المتكلم، ويأتي عاملا حجاجيا سواء أكان منفيا أم مثبتا، ففي نفيه نفي لمعناه وهو نفي لمقاربة الفعل أيضاً، نحو ما كاد يفعل فهو نفي للقرب من الفعل، وهو « أبلغ في انتفاء ذلك الفعل من نفْيِ الفعل نفسِه، فإن: ما قربت من الضرب آكَدُ من نفي الضرب من: ما ضربت »[35]، وفي الأخير وبعد الوقوف على أهم العوامل الحجاجية التي وردت عند عبدالقاهر الجرجاني، سنحاول من خلالها معرفة دورها في توجيه خطاباته، التي كان يسعى من خلالها إلى زرع وترسيخ أفكاره لدى المتلقي.

1.5 العامل (إنما)، و(لا) و(إلا):

- الرّد على المعتزلة في مسألة اللفظ.

- الشّبهة.

قال الجرجاني: « فإن قيل: فماذا دعا القدماء إلى أن قسَّموا الفضيلة بين المعنى واللفظ فقالوا: « معنى لطيفٌ، ولفظ شريف »، وفخَّموا شأنَ اللَّفظ وعظَّموه حتى تبعهم في ذلك من بعدهم، وحتى قالَ أهل النَّظر: « إنَّ المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايد الألفاظ »، فأطلقوا كما ترى كلاماً يوهِمُ كل من يسمعه أن المزية في حاقِّ اللفظ؟ »[36].

- الرّد (الدليل).

قال الجرجاني: « قيل له: لما كانت المعاني **إنما** تتبيّنُ بالألفاظ، وكان **لا** سبيل للمرتّب لها والجامع شَمْلَها، إلى أن يُعْلمك ما صنَع في ترتيبها **بفكره**، **إلا** بترتيب الألفاظ في نُطقه، تجوَّزوا فكَنَوْا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ، ثم بالألفاظ بحذف «الترتيب»، ثم اتبعوا ذلك من الوصف والنَّعت... »[37].

يسعى الجرجاني من خلال هذا الرّد، أن يبيّن أنّ اللفظ لا يتصف بالفخامة والعظمة وهو معزول عن التركيب، فالمزية لا تعود للفظ وحده، وإنما ترجع إلى تأليف الألفاظ ونظمها بطريقة معلومة توجهها المعاني، أي أنّ اللفظة لا قيمة لها إلا من خلال تلاؤمها مع بقية الألفاظ.

إنّ إدخال العاملين الحجاجيين (**إنما**)، و(**لا**) و(**إلا**) في هذا الملفوظ، دلالة واضحة على أن الجرجاني عارف بتصاريف الكلام، ووجوه الاحتجاج، فهو يريد أن يصل في هذا الملفوظ إلى نتيجتين تخدمان جوهر بلاغته.

1- (لما كانت المعاني **إنما** تتبيّن بالألفاظ)، تدل على أنّ: « الألفاظ خَدَمُ المعاني والمُصرَّفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكةَ سياستها، المستحقَّةَ طاعتها. فمن نَصَرَ اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جِهَته، وأحالهُ عن طبيعته، وذلك مظنّة الاستكراه، وفيه فَتْحُ أبواب العيب، والتَّعرُّضُ للشَّيْن »[38]، إنّ استعمال العامل الحجاجي (**إنما**) في هذا الملفوظ أكسبه طابع حجاجي، ساهم في تضييق دائرة التأويل، وتوجيه الحجاج نحو النتيجة الذي يسعى إليها الجرجاني، وهي أنّ المعاني أسبق من الألفاظ، وجُعلت الألفاظ للدلالة عليها، وهي النتيجة التي يرنو الجرجاني ترسيخها في فكر المتلقي.

إنّ المتمعن في هذا الملفوظ (لما كانت المعاني إنما تتبيّن بالألفاظ)، تستوقفه دقة اختيار الألفاظ وترتيبها بطريقة مخصوصة، مرتبطة بغرض محدد يريد الجرجاني توصيله إلى المتلقي، وكأنّه تجاوز تركيبات أخرى لا تفي بالغرض المنشود من قبيل:

- لما كانت المعاني تتبيّن بالألفاظ.
- إنّ المعاني تتبيّن بالألفاظ.
- المعاني تتبيّن بالألفاظ.

إنّ غياب أي مكوّن من هذه المكونات اللغوية يُضعف الطاقة الحجاجية لهذا الملفوظ، ويتسبب في هدم البناء الحجاجي برمته، كأنّ الجرجاني يجسد مفهوم النظم في أبسط التراكيب التي يستعملها للتدليل.

2- (وكان **لا** سبيل للمرتِّب لها والجامع شَمْلَها، إلى أن يُعْلمك ما صنَع في ترتيبها **بفكره**، **إلا** بترتيب الألفاظ في نُطقه)، تدل على أنّ: « لو كان القَصْدُ بالنظم إلى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغَرَضُ ترتيبَ المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حَذْوِها، لكان يَنْبَغي ألا يختلف حالُ اثنين في العلم بحُسْنِ النظم أو غير الحُسْنِ فيه، لأنهما يُحِسّان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يجهَلُه الآخر »[39]، وهو دليل آخر يوضح فيه فكرة النظم، وظّف من خلاله العامل الحجاجي (لا) و(إلا)، وذلك لدفع تلك الشبهة التي يتبناها المخاطَب القائلة: بأنّ المزية والشرف للفظ وحده، وتوجيه هذا الملفوظ نحو نتيجة واحدة لا تقبل المشاركة القائلة: بأنّ « الألفاظ لا تُفيد حتى تُؤلَّف ضربًا خاصًّا

من التأليف، ويُعْمَد بها إلى وجهٍ دون وجهٍ من التركيب والترتيب »[40]، وهذا الترتيب في التركيب « يقع في الألفاظ مرتَّبًا على المعاني المرتَّبة في النفس، المنتظمةِ فيها على قضيّة العقل »[41]، دليل آخر على ثبات موقف الجرجاني اتجاه مفهوم النظم، فلا يتصف اللفظ بالفخامة وهو خارج التركيب؛ أي أنّ اللفظة لا تأخذ قيمتها إلاّ من خلال تلاؤمها مع بقية الألفاظ داخل التركيب بالوجه الذي يقتضيه العقل.

2.5 العامل (لا) و(إلا) فيما يخص موضوع علاقة الاستعارة بالنظم:

قال الجرجاني: « إن في الاستعارة ما **لا** يمكن بيانه **إلاّ** من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته »[42]، يريد أن يؤكد عبد القاهر الجرجاني مرة أخرى على أهمية فنون النظم وحقيقته، ودوره في كشف جمالية الصورة البيانية.

إنّ توظيف العامل الحجاجي **(لا)** و**(إلاّ)** في هذا الملفوظ تأكيدٌ واضح من الجرجاني على أنّ المزية ليست في الصورة البيانية في حدّ ذاتها، لكن المزية تكمن في طريقة نظمها، وقد استشهد ببيت شعري، غايته من ذلك تقوية حجته، ورد شبهة المعترضين، ودليل ذلك أنه استعمل العامل الحجاجي **(إنما)** في هذا الردّ، يقول الشاعر:

« سَالَتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الحيّ حِينَ دَعَا *** أَنْصَارَهُ بوُجُوهٍ كالدَّنَانِيرِ »[43].

- الردّ (الدليل).

يقول الجرجاني: « فإنك تَرَى هذه الاستعارة، على لُطْفها وغرابَتها، **إنما** تمَّ لها الحسنُ وانتهى إلى حيثُ انتهى، بما توخَّى في وضع الكَلام من التقديم والتأخير، وتجدُها قد مَلُحت ولَطُفت بمعاونة ومؤّازرته لها »[44]، إنّ موقع هذه الاستعارة (سالت عليه شعاب الحيّ) داخل التركيب بالطريقة التي حدّدها الشاعر من تقديم وتأخير، أسند من خلاله السيل إلى الشعاب دون الأنصار، هي التي زادتها ذلك الحسن والجمال، وهو دليل وظّف فيه الجرجاني العامل الحجاجي **(إنما)** أضاف للملفوظ شحنة حجاجية، أراد من خلاله توجيه المعارضين إلى نتيجة محددة، أنّ مدار الأمر كله على النظم لا على اللفظ وحده.

3.5 العامل (ليس) و(إلا):

- قضية النظم وعلاقته بعلم النحو.

يقول الجرجاني: « اعلم أن **ليس** «النَّظْمُ» **إلا** أَن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه «علم النحو»، وتعملَ على قوانينه وأصوله، وتعرف مَناهجه التي نُهِجَتْ فلا تزيغ عنها، وتحفَظَ الرسومَ التي رُسِمت لك، فلا تُخِلُّ بشيء منها »[45]، دليل آخر يوضح فيه الجرجاني

قضية النظم، وظّف فيه العامل الحجاجي **(ليس)** و**(إلاّ)** للإبانة على معنى معين لا يستطيع القيام به أي عامل آخر، فهو يريد أن يوجه المخاطَب إلى نتيجة محددة، تقول بأنّ مفهوم النظم هو تأليف الكلام بالطريقة التي يقتضيها علم النحو.

إنّ توظيف العامل الحجاجي **(ليس)** و**(إلاّ)** في هذا الملفوظ، منحه قوة حجاجية أكبر، نلاحظ تراجعها إذا تخلينا عن هذا العامل من البناء اللغوي، فيصبح: (اعلم أن «النّظم» أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه «علم النحو»، وتعمل ...)، فلا تغدو وظيفة الملفوظ بدونه أن تكون إلا إبلاغية إخبارية لا تخدم غاية المتكلم، إنّ زوال ذلك العامل الحجاجي من البناء اللغوي يسهم في زوال تلك القوة الحجاجية التي ينجر من ورائها زوال قوة التأكيد واليقين الموجودتين في الخطاب، فالجرجاني يدرك ما لهذه المكونات اللغوية (العوامل الحجاجية) من فاعلية حجاجية في التراكيب اللغوية.

4.5 العامل كاد:

- مواضع التقديم والتأخير.

يقول الجرجاني: « أفلا ترى أنك إذا استبطأت إنسانا فقلت: «أتانا والشمس قد طلعت»، كان ذلك أبلغ في استبطائك له من أن تقول: «أتانا وقد طلعت الشمس»؟ وعكسُ هذا أنك إذا قلت: «أتَى والشمس لم تطْلُع»، كان أقوى في وصفك له بالعَجَلَة والمجيءِ قبل الوقت الذي ظُنّ أنه يجيء فيه، من أن تقول: أتى ولم تطلع الشمس بعدُ».

هذا، وهو كلامٌ **لا يكادُ** يجيءُ **إلاّ** نابياً، **وإنما** الكلام البليغ هو أن تبدأ بالاسم وتَبْنِي الفِعْلَ عليه كقوله:

• قَدْ أَغْتَدِي والطَّيْرُ لَم تَكَلَّمِ •

فإذا كان الفعل فيما بعدَ هذه الواو التي يُراد بها الحال، مضارعاً، **لم** يصلح **إلا** مبنيّاً على اسم كقولك: «رأيته وهو يكتب»، و«دخلت عليه وهو يُملي الحديثَ»، كقوله:

تَمزَّزْتُهَا وَالدِّيكُ يَدْعُو صَبَاحه إِذَا ما بَنُو نَعْشٍ دَنَوْا فَتَصَوَّبُوا

ليس يصلح شيء من ذلك **إلا** على ما تراه، لو قلتَ: «رأيته ويكتب»، و«دخلت عليه ويملي الحديث»، و«تمززتها ويدعو الديك صاحبه»، لم يكن شيئاً »[46].

لقد أفعم الجرجاني دليله بترسانة من العوامل الحجاجية من قبيل: (لا) و(إلا)، و(إنما)، و(لم) و(إلا)، و(ليس) و(إلا)، و(كاد)، قصد تقوية حجته وتثبيت صحة زعمه القائل: (هذا، وهو كلامٌ **لا يكادُ** يجيءُ **إلاّ** نابياً، **وإنما** الكلام البليغ هو أن تبدأ بالاسم وتَبْنِي

الفِعْلَ عليه)، والذي يهمنا في هذا التحليل هو دور الوظيفة الحجاجية للعامل (كاد) في هذا الملفوظ.

إنّ إقحام العامل الحجاجي (كاد) في هذا الملفوظ، دلالة واضحة على وعي الجرجاني بما يريد توصيله إلى المخاطَب، فالجرجاني لم يكتف بنفي فعل المجيء (لا يجيء)، بل تعداه إلى أبلغ من ذلك، حينما قام بنفي مقاربة فعل المجيء بإقحام العامل الحجاجي (كاد) في هذا الملفوظ (لا يكاد يجيء)، ويمكن أن نوضح هذا بشكل جيد بواسطة التركيبين التاليين:

- وهو كلام لا يجيء إلا نابيا ←—— نفي الفعل ←—— بليغ.

- وهو كلام لا يكاد يجيء إلا نابيا ←—— نفي مقاربة الفعل ←—— أبلغ،

«لأن نفيَ القربِ من الفعل أبلغُ في انتفاء ذلك الفعل من نفْيِ الفعل نفسِه »[47]، وهو أقرب إلى قول الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم، 17] ، فالآية الكريمة جاءت في القوم الذين كفروا، وتوعدوا رسلهم بأن يخرجوهم من أرضهم إذا لم يعودوا إلى ملة الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم، 13-17] ، إنّ وجود (كاد) في هذه الآية دلالة واضحة على المبالغة في التهديد والوعيد المعبرين على الخوف الشديد القارع للقلوب، يقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: « صديد، وهو: ما يسيل من جلود أهل النار ﴿يتجرعه﴾ يتكلف جرعه ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ دخل كاد للمبالغة يعني: ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة كقوله: ﴿لم يكد يراها﴾ أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها »[48]، وهو ما أراده الجرجاني من وراء إدخال العامل الحجاجي (كاد) في خطابه، المبالغة في الابتعاد على مثل هذا الكلام، لأنّه لا يجيء إلا نابيا؛ أي قلق غير منسجم[49]، فكأنّ الجرجاني يريد أن يزيله حتى من مخيّلة المخاطَب، لأنّ الذي يقتضيه نفي

(كاد)، أن الفعل لم يكُنْ من أصْله، ولا قاربَ أن يكون، ولا ظُنَّ أنه يكون[50]، وهي الغاية أو النتيجة التي أراد أن يصل إليها الجرجاني، والتي تجلت في البيت الشعري:

« تَمزَّزْتُهَا وَالدِّيكُ يَدْعُو صَبَاحه إِذَا ما بَنُو نَعْشٍ دَنَوْا فَتَصَوَّبُوا

ليس يصلح شيء من ذلك إلا على ما تراه، لو قلتَ: ...، « «تمززتها ويدعو الديك صاحبه»، لم يكن شيئاً »[51]، وهو على هذا الشكل:

- تَمزَّزْتُهَا وَالدِّيكُ يَدْعُو صَبَاحه ⟵ تبدأ بالاسم (الدّيك) وتبني الفعل عليه (يدعو) ⟵ كلام بليغ.

- تمززتها ويدعو الديك صاحبه ⟵ تبدأ بالفعل (يدعو) ثم الاسم (الديك) ⟵ لم يكن شيئاً.

6. خاتمة:

ومن خلال هذه الدّراسة التي اشتملت على مجموعة من المحطات، وقفت على بعض النتائج أهمها:

- يعتبر الحجاج سمة واضحة في الخطاب البلاغي لعبد القاهر الجرجاني، صاحب كتاباته منذ البدايات الأولى، كما أنّه اقتفى أثر القرآن الكريم في صياغة أدلته لبناء نظرية إقناعية قائمة على قوة الكلام وفعّالية الحجاج.

- استثمار عبد القاهر الجرجاني للعوامل الحجاجية في خطاباته دلالة واضحة على أنّ الرجل عارف بتصاريف الكلام، ووجوه الاحتجاج والجدل.

- إدراك الجرجاني لدور العامل الحجاجي في انسجام الخطاب، ونقل الملفوظ من بنية الإخبار والإبلاغ إلى بنية الحجاج قصد توجيه المتلقي للاتجاه الذي يريده المخاطِب.

- كما أنّ أهمية هذه العوامل جعلته يتطرق إليها في بعض أبحاثه تنظيرا وتطبيقا، حتى أنّه خصّ بعضها (القصر والاختصاص) في كتاب دلائل الإعجاز بباب قارب الثلاثين صفحة (328-358).

مراجع البحث وإحالاته:

(1)- درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، مصر، 1960م، ص47.

(2)- المرجع نفسه، ص47.

(3)- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح: على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1371هـ/1952م، ص57-58.

(4)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تع: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، دط، دت، ص53-54.

(5)- المصدر نفسه، ص51.

(6)- أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1393هـ/ 1973م، ص84.

(7) - المرجع نفسه، ص36.

(8)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص41.

(9)- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، دت، ص115.

(10)- صابر حباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2008م، ص50.

(11)- عزّ الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، سفاقس، تونس، ط1، 2011م، ص17.

(12)- Azaoui Boubaker, Argumentation et enonciation, Top press, Rabat, Maroc, sans édition, sans date, p63.

(13)- شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمّادي صمّود، كلية الآداب منوبة، تونس، دط، دت، ص376-377.

(14)- رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج مدخل إلى الحجاجيات اللسانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2014م، ص101-102.

(15)- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، عمدة الطبع، المغرب، ط1، 1426هـ/ 2006م، ص27.

(16)- عزّ الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص33.

(17)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص328.

(18)- المصدر نفسه، ص328.

(19)- المصدر نفسه، ص337.

(20)- ينظر، المصدر نفسه، ص328.

(21)- المصدر نفسه، ص329.

(22)- المصدر نفسه، ص330.

(23)- ينظر، المصدر نفسه، ص333.

(24)- المصدر نفسه، ص335.

(25)- شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص376.

(26)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص337.

(27)- المصدر نفسه، ص337.

(28)- ينظر، المصدر نفسه، ص274.

(29)- ينظر، المصدر نفسه، ص275.

(30)- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص49.

(31)- ينظر، أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص56.

(32)- المرجع نفسه، ص56.

(33)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص275.

(34)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص275.

(35)- الرضي الإستراباذي، شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، تح: حسن بن محمد إبراهيم الحفظي- يحي بشير مصطفى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة السعودية، ط1، 1417هـ/ 1966م، القسم الثاني، ص1082

(36)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص63.

(37)- المصدر نفسه، ص64.

(38)- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص8.

(39)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص51.

(40)- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص4.

(41)- المصدر نفسه، ص5.

(42)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص100.

(43)- المصدر نفسه، ص99.

(44)- المصدر نفسه، ص99.

(45)- المصدر نفسه، ص81.

(46)- المصدر نفسه، ص136-137.

(47)- الرضي الإستراباذي، شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، القسم الثاني، ص1082

(48)- الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تع: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ/2009م، ص548.

(49)- ينظر، شعبان عبد العاطي عطية وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 1425هـ/ 2004م، ص899.

(50)- ينظر، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص275.

(51)- المصدر نفسه، ص137.

قائمة مصادر البحث ومراجعه:

- القرآن الكريم.

1- أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1973م.

2- أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.

3- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، عمدة الطبع، المغرب، ط1، 1426هـ/ 2006م.

4- درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، مصر، دط،1960م.

5- الرضي الإستراباذي، شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، تح: حسن بن محمد إبراهيم الحفظي- يحي بشير مصطفى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة السعودية، ط1، 1417هـ/ 1966م.

6- رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج مدخل إلى الحجاجيات اللسانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2014م.

7- الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تع: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ/2009م.

8- شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمّادي صمّود، كلية الآداب منوبة، تونس، دط، دت.

9- شعبان عبد العاطي عطية وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004م.

10- صابر حباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2008م.

11- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، دط، دت.

12- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تع: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، دت.

13- عزّ الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، سفاقس، تونس، ط1، 2011م.

14- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح: على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1371هـ/1952م.

15- Azaoui Boubaker, Argumentation et enonciation, Top press, Rabat, Maroc, sans édition, sans date.